مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية
العدد الأول – المجلد الأول
مارس 2017
ISSN: 2518-5780

المجلة العربية للعلوم و نشر الأبحاث
Arab Journal of Sciences & Research Publishing
AJSRP

الخوف في شعر الفرزدق بين الإعلان و الإضمار

احمد محمد علي الجربوع
باحث ومهتم في الادب العربي – الرياض – المملكة العربية السعودية

الملخص: يسلط هذا البحث الضوء على ظاهرة الخوف في شعر الفرزدق، ولا يدرسها بالجملة في ديوانه، و إنما يدرسها ويركز عليها من خلال الشعر الذي قاله الشاعر في زياد والحجاج، و هما من ولاة العراق، و كان لهما عظيم الأثر في توجيه هذه الظاهرة في نظم الفرزدق، الذي أفرغ أكثره فيهما، فأولينا اهتمامنا في هذا البحث إلى قرب الشاعر من الوالي وبعده عنه، و أسباب ذلك، وكيف نشأ شعر الخوف من زياد والحجاج على وجه خاص، و ما نجم عن ذلك من تعبير شعري له سماته وخصائصه في كل مرحلة، و مع كل والٍ، و كان عُمرُ الفرزدق و سنه، وبصره بسياسة عصره، وساسة مِصْرِه بمثابة الفيصل في كل تجربة، إذ وسمت شعره الخائف بالتباين مع زياد و الحجاج، مما أثمر بعد وفاتهما غير قليل من الأهاجي أتينا على ذكر بعضها في هذا البحث، مع اختلاف مضامينها حسب شدة الخوف الذي عاشه الشاعر مع هذا الوالي أو ذاك .

الكلمات المفتاحية: شعر الخوف، خوف الفرزدق، زياد والحجاج .

Abstract: This research highlights the phenomenon of fear in the poetry of Farazdaq, nor studied wholesale in his divan, but to be considered and focuses it through the poetry that he said the poet in Ziad and Haggag, two of the governors of Iraq, and have had a great impact in guiding this phenomenon in poetry of Farazdaq, organized the most part in them, the priority of our attention in this research is to approach the poet and awayto the governor, and the reasons for it, and how the feel of poetry grew of Ziad and Haggag in particular, and what the resulting poetic expression has its characteristics at each stage, and with all governors, Farazdaqs age, his eyesight policy of his day, and politicians as differential in each experiment. It marked in his poetry fearful contrast with Ziad and Haggag, which resulted after their death is a little satires come to mention some of them in this research, with different implications according to the intensity of the fear that the poet lived with this governor or that

Keywords: Poetry of fear-AL Farazdaq's Fear-Zeyad and AL hajaj

مقدمة :

الخوف عاطفة وشعور نفسي يبديه المرؤ أفعالاً و أقوالاً، لتلازم الخوف و النفس البشرية منذ إدراكنا و وعينا بما يحيط عالمنا حتى زوال هذا الوعي، و انقطاع الإدراك بالموت و الفناء .

وفي عالم الأحياء يكثر الخوف، وتتعدد أسبابه، فمنه ما هو ديني يتمثل في الخوف من الله عز و جل، و من عقابه و من النار. و منه ما يُجْبَل عليه الإنسان من الخوف الطبيعي كالخوف من الضواري و نحوها، و منه ما يكوم داءً يصيب النفس، ويستلزم من صاحبه العلاج .

ولا جدل في أن التعاطي مع الخوف يختلف من شخص لآخر. فمن مُسَلِمٍ له وخاضع، إلى ثائر عليه غير عابئ به، إلى متوسط يريد دفعه دون بذل التضحيات .

وعليه يكون الخوف باعثًا للعواطف، و مهيجًا للقرائح، لذا نرى بعض الشعراء لا يأنف من وصف خوفه و بيانه في شعره، حتى أصبح شعر الخوف مذهبًا شعريًا يركن إليه طائفة من الشعراء في فترات يتمكن منهم الخوف و الهلع فتسيل شلالات الشعر الواصف لهذا الخوف .

و في العصر الأموي نما شعر الخوف و ازدهر في كنف البطش و التجبر من قبل ولاة الأمويين على بعض الأمصار، و اشتهر من ولاتهم غير واحد عرفوا بالبطش و التنكيل كزياد و ابنه عبيد الله و الحجاج بن يوسف الثقفي .

و في زياد و الحجاج قال الفرزدق و أَكْثَرَ من شعر الخوف، و حاول دفعه بالوسائل الممكنة و المتاحة في نفس الوقت، غير أن وسائله اختلفت باختلاف الرجلين. مما أثمر حالة من الخوف تتباين. و يظهر اختلافها في شعره، و هي ظاهرة جديرة بالدراسة، ومهمة لإبراز هذه الظاهرة في شعر الفرزدق مع زياد والحجاج بصفة خاصة. وقد ركزت عليهما من بين الولاة؛ لوضوح شعر الفرزدق الخائف منهما دون غيرهما، مما يعكس أهمية هذا البحث، وإن كانت مادة الخوف في شعره من الأمور التي تناولها من سبقنا إليه بالدراسة، كالدكتور شاكر الفحام في كتابه (الفرزدق)، وممدوح حقي في كتابه (الفرزدق)، والأستاذ خليل شرف الدين في دراسته المسماة بالفرزدق بين الله وابليس، وكل هذه الدراسات نظرنا فيها وأفدنا منها إلا أنها تعرض لهذه الظاهرة بشكل عام، ونحن نخصصها ونحصرها عند أهم وآليين لم يظهر الخوف في شعر الفرزدق مع إنسان كما ظهر معهما، مما دفعني لاختيار هذا الموضوع، وتعقب شعره الخائف من الرجلين في ديوانه الضخم، واستقرائه وتحليله؛ لأقدم للقارئ أنموذجًا حقيقيًا لشعر الخوف في تلك الحقبة. والله أسأل القبول والتوفيق...

إشكالية البحث و أسئلته :

تكمن مشكلة البحث في تقسيم الخوف في شعر الفرزدق إلى معلن و مضمر، مما يترتب عليه الإجابة عن عدة تساؤلات أهمها :

- أسباب إعلان الخوف وإضماره في شعر الفرزدق ؟
- ما أثر ذلك على شعره ؟
- كيف عبر الشاعر عن خوفه ؟
- كيف انتقم الشاعر ممن أخافه ؟

المنهج المتبع : اعتمد الباحث في بحثه على المنهج الوصفي التحليلي في استقراء شعر الخوف عند الفرزدق، و وصفه هذه الظاهرة، و تحليل مضمونها واستنتاج السمات المميزة لهذه الظاهرة في شعر الفرزدق الذي قاله خوفًا من زياد و الحجاج .

أ- زياد و الخوف المعلن :

لا نرى في تاريخنا العربي زياداً إلا وقد اقترن اسمه بالدم و البطش و العنف[1]، و كل ما من شأنه أن يزيد من حدة الخوف في مجتمعه. و مع تولي زياد أمر العراق لمعاوية، وهو أول والٍ تجمع له العراق بمصريه البصرة والكوفة[2]، فاشتد في ضبطهما، و معاقبة المذنب، و محاسبة المتهم، فعلت أصداء الخوف منه في نفوس كثيرٍ من أبناء العراق، لا سيما الفرزدق. لم يكن الفرزدق، و هو من أبناء البصرة و مواليدها[3] ممن يتكيف مع شخص كزياد. و للفرزدق شخصيته العابثة، التي

(1) انظر في ذلك الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 214/5 و ما بعدها ، و انظر ترجمته في البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، 197/5 و ما بعدها.

(2) ابن خلكان،وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، طبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط1، 1997م ، 357/3 .

(3) مروة، محمد رضا، الفرزدق حياته وشعره ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1990م ،ص19 .

لا تدين للسلطان بالطاعة، فضلاً عن كونه يمثل الأعراب و البدو من تميم[4] الذين نزلوا كاظمة بالقرب من البصرة[5]. في حين كان زياد لا يرضى بخرق القوانين التي وضعها ليحفظ بها أمن ولايته، كما أنه لا يرضى بالنزق و الطيش من الأقوال و الأفعال التي قد تعيد دعوى الجاهلية فتبعث معها ما درس من إحن و فتن . من هنا نستطيع أن نفهم الاختلاف الكبير بين الشخصيتين، وندرك أن اصطدامهما ببعضهما قادم لا محالة .تولى زياد أمر البصرة سنة 45 هجرية ، و لحقتها الكوفة سنة 5 هجرية[6]، و كل هذا و الفرزدق لم يتجاوز الثلاثين من عمره[7]. وبحماس الشباب و طيش الفتيان اصطدم الشاعر بزياد عن قصد وغيره. فابتدأ الخوف يلف نفسه ، و يعصف به ، و لم يكن أبو فراس يستطيع دفعه ، و التخلص منه فأسلم له الانقياد و أذعن .

روى أهل التاريخ عدة أمور أخذها زياد على الفرزدق ، و طلبه بها و هي :

1- هجاء الفرزدق لبني نهشل و فقيم الذين استعدوا عليه زيادًا[8] .
2- مطالبته لمعاوية برد ميراث عمه الحُتات بعد موته ، و قوله شعرًا يفخر فيه على معاوية ، مما زاد حنق زياد عليه[9] .
3- رميه الدراهم في السوق بعد بيعه حلوته لأبيه ، و في هذا تعدٍ على القانون و إغراء الناس بالسرقة و النهب التي قضى عليها زياد في العراق[10] .

هذه التجاوزات من شاعرنا أفضت به إلى عداوة زياد، وكلفته الرحيل عنوة ، و قسرًا عن العراق كلها ، و كان قبل أن يفارقها كليةً يتقلب بين الكوفة و البصرة ، فإن أقام زياد في الكوفة هجرها الفرزدق، والعكس إن أقام زياد بالبصرة هجرها الفرزدق إلى الكوفة ، و كان ديدن زياد أن يقيم نصف العام في البصرة ، و نصفه الآخر في الكوفة[11] .

سار الفرزدق ميمًا شطره نحو المدينة ، و عليها سعيد بن العاص واليًا لمعاوية ، فاستجار به فأجاره ، و من ثم مدحه الشاعر.

إلى هنا ينتهي السياق التاريخي لحادثة فرار الفرزدق من زياد ، و استجارته بوالي المدينة سعيد بن العاص ، و يبتدئ سياق شعر الخوف من زياد الذي يطل علينا بأشكال مختلفة في ديوانه من حين لأخر.

و لعل لسائل أن يقول ما قيمة الخوف والتعبير عنه في شعر الفرزدق و قد أَمِنَ زيادًا و ابتعد عنه ؟ تكمن القيمة الحقيقية لهذا الشعر بصدق التجربة ، التي عاشت مع الشاعر حتى بعد موت زياد ، و استغلها بشكل واضح مع الحجاج ، و لم تضطره للهرب منه ، فهي تجربة تدل استفادة الشاعر منها على صدقها .

لم يتحرج الفرزدق من إعلان خوفه ، و البوح به ، و بشكل يشف عن نفس مضطربة تتمنى زوال هذا الخوف . و من صريح شعره في ذلك قوله :

وَعِيْدٌ أَتَانِي مِنْ زِيَادٍ فَلَمْ أَنَمْ وَسَيْلُ اللِّوَى دُونِي وَ هَضْبُ التَّهَائِمِ

(4) ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي – العصر الإسلامي - طبعة دار المعارف ، القاهرة ، ط7 ، ص267 .
(5) أبومصلح، كمال، الإسكندري، الشيخ أحمد، الفرزدق حياته وشعره، طبعة المكتبة الحديثة ، بيروت ، ط1 ، 1987م ، ص25 .
(6) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 216/5 ومابعدها .
(7) انظرفي تعيين مولده، ضيف، شوقي، العصرالإسلامي ، ص267 ، وفي حقي، ممدوح، الفرزدق، طبعة دارالمعارف.
(8) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 241/5 .
(9) نفسه، 244/5 .
(10) البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، 233/5 .
(11) نفسه، 219/5 .

فَبِتُّ كَأَنَّي مُشْعَرٌ خَبْيَرِيَّةً سَرَتْ فِي عِظَامِي أَوْ لُعَابُ الأَرَاقِمِ [12]

لقد منعه وعيد زياد من النوم ، على الرغم من بعد المسافة بينهما ، و وقوف سيل اللوى و الهضاب التهائم دون بلوغه ، مما يثي بصدق شعوره الذي بان على جسده ، و كأن حمى خيبر قد اعترته ، أو حية لدغته .

و يؤكد الفرزدق صدق شعوره بالخوف حين يظهره ، و لا يكتمه ، و يبرز آثاره النفسية و الجسدية ، لحدة وطأته عليه إذ يقول :

طَرِيْداً سَرَى حَتَّى أَنَاخَ وَ مَا بَدَتْ مِنَ الصُّبْحِ أَعْنَاقُ النُّجُومِ الَخَوافِقِ

شَرِيْجَانِ بِكْرٌ لَمْ تُدَيَّثْ وَ مُرْضعٌ تَرَكْنَا لَهَا لُبّاً كَلُبِّ المَعَالِقِ

إِذا ذَكَرتْ نَفْسِي زِيَاداً تَكَمَّشَتْ مِنَ الخَوْفِ أَحْشَائِي وَ شَابَتْ مَفَارِقِي [13]

هذه الأبيات تعمق الصراع الداخلي في نفس الشاعر ، حيث يرى نفسه تتهاوى بين خوف جامح تظهر أعراضه بتكمش الأمعاء ، وشيب المفارق و بين حال مزرية خسر فيها الفرزدق كل شيء . خسر موطنه و أهله ، و أصبح طريدًا غريبًا يقيم في وطن غير وطنه مستجيرًا يحاذر الوقوع في شرك زياد .

و يزداد صراع الفرزدق مع نفسه الخائفة ، و يصل إلى مرحلة خطيرة من التوهم و التخيل ، إذ نراه وقت هروبه من زياد يرى أسدًا في طريقه فقال :

مَا كُنْتُ أَحْسِبُنِي جَبَاناً قَبْلَ ما لَاَقَيْتُ لَيْلَةَ جَانِبِ الأَنْهَارِ

لَيْثاً كَأَنَّ عَلَىَ يَدَيْهِ رِحَالَةً جَسِدَ البَرَاثِنِ مُوْجَدَ الأَظْفَارِ

لَمَّا سَمِعْتُ لَهُ زَمَازِمَ أَقْبَلَتْ تَقَسِي إِلَيَّ وَ قُلْتُ أَيْنَ فِرَارِي

فَضَرَبْتُ جِرْوَتَهَا وَ قُلْتُ لَهَا اصْبِرِي وَ شَدَدْتُ فِي ضَيْقِ المَقَامِ إِزَارِي

فَلأَنْتَ أَهْوَنُ مِنْ زِيَادٍ جَانِباً فَاذْهَبْ إِلَيْكَ مُخَرِّمَ السُّفَّارِ[14]

الأسد و زياد معادلة نظن فيها التطابق المطلق بين الضاري و الوالي من عدة أوجه أولها : خوف الشاعر منهما ، و ثانيهما : القدرة على الفتك من خلال (سلطة زياد و وبراثن الأسد و أظفاره)، و ثالثهما: هرب الفرزدق من كليهما و مع هذا نرى تفضيل الشاعر للأسد على زياد ، لأنه أهون من وجهة نظره التي نفهم منها مدى خوفه من زياد حتى أعلن خوفه و جهر به .

و يظهر الأسد مرة أخرى في شعر الفرزدق ، لكنها جماعة أفزعها زياد و ذعرها بوجهه العابس :

أَلاَ مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي زِيَاداً بِأَنِّي قَدْ لَجأْتُ إِلى سَعِيدِ

[12]() الفرزدق، شرح ديوان الفرزدق، ضبط معانيه وشروحه وأكملها : إيليا الحاوي ، طبعة دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط1 ، 1983م ، 493/2

[13]() نفسه، 140/2

[14]() الفرزدق، شرح ديوانه، 426/1 .

وَ أَنّي قَدْ فَرَرْتُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ إِلَى ذِي المَجْدِ وَ الحَسَبِ التَّلِيْدِ

فِرَاراً مِنْ شَتِيْمِ الوَجْهِ وَرْدٍ يُفِزُّ الأُسْدَ خَوْفاً بِالوَعِيْدِ[15]

لقد تمكنت نزعة خوف زياد من الفرزدق ، حتى رأى الأسد أهون منه ، بل رأى إفزاعه للأسد ، و كأنه يقارن بين حالة فزعه ، و بين الأسد المذعورة من زياد ، ليلتمس عذرا له على خوفه .

و مما يزيد الخوف في شعر الفرزدق ، و يؤكد عليه ، ظهوره بأنماط و أشكال مختلفة . كالمزج بينه و بين سببه ، و بينه و بين مدح الغاضب . و قد ضَمَّنَ الفرزدق كل ذلك في شعره إذ يقول مخاطبا زيادًا:

زِيَادَ بِنَ حَرْبٍ لَو أَظُنّكَ تَارِكِي وَ ذَا الضِّغْنِ قَدْ خَشَّمْتَهُ غَيرُ ظَالِمِ

لَقَدْ كَافَحتْ مِنيّ العِرَاقَ قَصِيْدَةٌ رَجُومٌ مَعَ المَاضِي رُؤُوسَ المَخَارِمِ

خَفِيْفَةُ أَفْوَاهِ الرُّوَاةِ ثَقِيْلَةٌ عَلَى قَرْنِهَا نَزَّالَةٌ بِالمَوَاسِمِ

رَأَيْتُكَ مَنْ تَغْضَبْ عَليهِ مِنِ امْرِئ وَ لَوْ كَانَ ذَا رَهْطٍ يَبِتْ غَيرَ نَائِمِ

أَغَرٌّ إِذَا أغبَرَّ اللِّئَامُ تَخايَلَتْ يَدَاهُ بِسَيْلِ المُفْعَمِ المُتَرَاكِمِ

نَمَتْكَ العَرَانِينُ الطِّوالُ وَ لاَ أَرَى لِسَعْيِكَ إِلاَّ جَاهِداً غَيرَ لاَئِمِ[16]

لا نجد في شعر الفرزدق أفضل من هذه الأبيات ، لتدلنا على تداخل عواطفه . ففيها ينتقل الشاعر من تأكيد طلب زياد له ، إلى ذكر السبب الرئيس وهو هجاء بني نهشل و فقيم ، إلى العقوبة و ما يتبعها من هواجس لا تمكن من النوم ، حتى وصل المدح الذي قد يسعف بخلاصه .

ولعل هذه الأبيات ، و غيرها مصداق قول حماد الراوية للفرزدق : أنت أشعر من جرير إن خفت أو رجوت[17].

و تظهر أمارة الخوف في شعره حين يردد علينا العقوبة التي يتخيل أن يعاقبه بها زياد . فهو في أبيات له يقول:

أَلَمْ تَذْكُرُوا يَا آلَ مَرْوَانَ نِعْمَةً لِمَرْوَانَ عِنْدِيْ مِثْلُهَا يَحْقُنُ الدَّمَا

بِهَا كَانَ عَنّي رَدَّ مَرْوَانَ إِذْ دَعَا عَلَيَّ زِيَاداً بَعْدَمَا كَانَ أَقْسَمَا

لَيَقْتَطِعَنْ حَرْفَيْ لِسَانِي الذي بِهِ لِخِنْدَفَ أَرْمِي عَنْهُمُ مَنْ تَكَلَّمَا[18]

(15) نفسه، 248/1 .

(16) نفسه، 2/ 411.

(17) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني ، شرحه و كتب هوامشه : الأستاذ:سمير جابر، و الأستاذ:عبد أ. علي مهنا ، طبعة دار الكتاب العربية ، بيروت ط4 ، 2002م ، 289/21 .

(18) الفرزدق، شرح ديوانه، 367/2.

نرى الفرزدق يذكر نعمة مروان بن الحكم عليه في منعه من زياد ، و كان مروان قد ولي المدينة بعد سعيد بن العاص سنة 54 هجرية[19] ، و قد يكون مروان أجاره قبل أن يأتيه خبر وفاة زيد في رمضان سنة 53 هجرية[20].

و في أخرى يقول :

إِلَيْكَ فَرَرْتُ مِنْكَ وِ مِنْ زِيَادٍ وَ لَمْ أَحْسِبْ دَمِي لكُما حَلالاَ

وَ لَكِنيِّ هَجَوْتُ وَ قَدْ هَجَتْنِي مَعَاشِرُ قَدْ رَضَخْتُ لَهُمْ سِجَالاَ

فَإِنْ يَكُنِ الهِجَاءُ أَحَلَّ قَتْلِي فَقَدْ قُلْناَ لِشَاعِرِهِمْ وَ قَالاَ

وَ إِنْ تَكُ فِي الهِجَاءِ تُرِيْدُ قَتْلِي فَلَمْ تُدْرِكْ لِمُنْتَصِرٍ مَقَالاَ[21]

و هناك يعلل الفرزدق سبب فراره من زياد ، و هو سبب وجيه يغري أي شخص بالهرب منه ، حين يصبح القتل و استحلال الدم عقوبة الهجاء ، فلابد للشاعر من النجاة بنفسه .

و في الأبيات ما يوحي باستقصاد زياد للفرزدق . فالهجاء كان سجالا بينه و بين بني نهشل و فقيم ، و يؤخذ هو وحده بالعقوبة دون غيره ، فالفرار مُسَبَّبٌ عنده ، و الخوف طبيعي من وآلٍ يعاقب بقطع اللسان و القتل .

هذا ما رصدناه في شعر الفرزدق من أبيات جهر بها من خوف زياد الذي عاصره ، و أقام في ولايته البصرة أمدًا ليس بالقليل علم فيها من سياسة زياد مالم يعلمه غيره . تلك السياسة المتسلطة المتجبرة ، التي تدفع الناس للفرار اتقاءها و اتقاء صاحبها .

ولا شك أن نفس الفرزدق قد حدثته بالعودة إلى العراق و أميرها زياد ، لكنه بُلغ من أخبارها بما لا يبعث على الطمأنينة . ففي سنة 51 هجرية قتل زياد أوفى بن حصن ، لأمور سياسية أخذها عليه ، و كان أوفى شاعرًا و استعطف زيادًا قبل قتله و لم ينجح[22] . كما هَجَّرَ الشاعر عبد الله بن خليفة الطائي قسرًا من العراق[23] ، لاشتراكه في ثورة حجر بن عدي الكندي الذي لقي مصرعه بالشام على يد معاوية و بإيعاز من زياد[24] و كان حجر من أحسن أهل عصره صلاحًا .

فعندما يرى الفرزدق من هم مثله من الشعراء يقتلون و يهجرون ، و من هم أفضل منه دينا و صلاحًا يقتلون ، فإنه يحمد الله على فراره ، و استعصامه بالمدينة في كنف سعيد بن العاص .

و قد كان لمتابعة أخبار العراق و واليها من قبل الفرزدق أثر على سير شعره ، و على طبائعه و أخلاقه في مدينة لم يكن أهلها ليرضوا الخطأ و العبث ، إذ نرى نزعة الخوف من هذا الشاعر قد أدخلته في دوامة من المجون و الانحلال ، و أغرق في لذاته و جاهر بها ، فلم يحتمل مروان بن الحكم و هو والي المدينة أن يقول الفرزدق مثل هذا الشعر الذي يصف فيه مجونه وهو بين أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجه منها[25] .

([19]) الطبري تاريخه، 293/5 .
(4) نفسه، 288/5 .
(5) الفرزدق، شرح ديوانه، 188/2.
(1) الطبري، تاريخه، 235/5 .
(2) نفسه، 281/5 .
([24]) نفسه، 253/5 .
([25]) الأصفهاني، الأغاني، 324/21 .

و في ديوانه قصيدة طويلة يصف فيها ليلة من لياليه الماجنة مع فتاه بذل من أجل وصالها المستحيل ، فأشبع غرائزه ، و تدلى من عندها بحبل كي يفارق دارها ، قبل أن يفضحه الصبح[26].هذه القصيدة تحديدًا كانت سبب طرد مروان له من المدينة .

و إن كان ما يخصنا في هذا البحث أن ننظر في شعر الخوف عند الفرزدق من زياد على وجه الخصوص ، و ما نجم عنه من أثر في شعر الشاعر و حياته فها نحن نسمعه يصدح بفحشه ، بينما تخشيه صاحبتة من زياد فيقول :

إِذَا شِئْتُ غَنَّانِي مِنَ العَاجِ قَاصِفٌ عَلَى مِعْصَمٍ رَيَّانَ لَمْ يَتَخَدَّدِ

لِبَيْضَاءَ مِنْ أَهْلِ المَدِيْنَةِ لَمْ تَعِشْ بِبُؤْسٍ وَ لَمْ تَتْبَعْ حَمُولَةَ مُجْحَدِ

نَعِمْتُ بِهَا لَيْلَ التَّمَامِ فَلَمْ يَكَدْ يُرَوّي اسْتِقَائِي هَامَةَ الحَائِمِ الصَّدِي

وَ قَامَتْ تُخَشِّيْنِي زِيَاداً وَ أَجْفَلَتْ حَوَالِيَّ فِي بُرْدٍ رَقِيْقٍ وَ مُجْسَدِ

فَقُلْتُ ذَرِيْنِي مِنْ زِيَادٍ فَإِنَّنِي أَرَى المَوْتَ وَقَافاً عَلَى كُلِّ مَرْصَدِ[27]

كيف للفرزدق أن يذكر زيادًا في ليالي أنسه ؟ و كيف لصاحبته أن تخشيه من زياد ؟ لولا خوفه منه ، و تيقن صاحبته من ذلك لم يجرِ بينهما مثل هذا الحديث في مثل هذه الليلة .

و من اللافت للنظر في هذه الأبيات ، ويستحق الملاحظة ، أننا نصادف أول بيت لأبي فراس يحاول فيه كسر قيود خوفه ، و الانتصار لنفسه، و الانطلاق من عقال الرهبة التي فرضها زياد عليه وهذا في قوله:

فَقُلْتُ ذَرِيْنِي مِنْ زِيَادٍ فَإِنَّنِي أَرَى المَوْتَ وَقَافاً عَلَى كُلِّ مَرْصَدِ

فهذا البيت يمثل التوازن النفسي ، و الوصول إلى الحقيقة المحتومة بالموت سواء كان من زياد ، أو من غيره ، لأن الموت يترصد للإنسان و يتحينه حتى يقبض روحه . و قد يكون ذكر زياد هنا ، و التقليل من شأنه و شأن عقابه ، ما هو إلا فخر من الفرزدق بنفسه أمام غانية من غوانيه ، ليثبت لها شجاعةً أنكرها بعض أهل الأدب ، حين وصفوه بأجبن الناس[28] . فالشعر أرحب للفخر بالشجاعة ما دامت كذبًا على النساء . و لم يكن زياد قد نسي الفرزدق ، حتى بعد رحيله عن العراق ، مما أسهم بشكل ، أو بآخر في دخوله عالم المجون و اللهو محاولاً نسيان زياد و خوفه . و قد ذكر الفرزدق شيئا من هذا في شعره . حين بلغه أن زيادًا سمع شعره فرق له و قال : لو جاءني لأمنته و وصلته[29] فأجابه الفرزدق :

دَعَاني زِيَادٌ للعَطَاءِ وَ لَمْ أَكُنْ لأَقْرَبَهُ مَا سَاقَ ذُو حَسَبٍ وَفْرَا

وَ عِنْدَ زِيَادٍ لَوْ يُرِيْدُ عَطَاءَهُمْ رِجَالٌ كَثِيْرٌ قَدْ يَرَى بِهِمُ فَقْرَا

(26) الفرزدق، شرح ديوانه، 353/1 ومابعدها .
(27) الفرزدق، شرح ديوانه، 260/1 – 261 .
(2) الأصفهاني، الأغاني، 21/ 349.
(3) البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، 235/5 .

قُعُودٌ لَدَى الأَبْوَابِ طُلاَّبُ حَاجَةٍ عَوَانٍ مِنَ الحَاجَاتِ أَوْ حَاجَةٍ بِكرَا

فَلَمَّا خَشِيْتُ أَنْ يَكُونَ عَطَاؤهُ أَداهِمَ سُوداً أَوْ مُحَدرَجَةً سُمرَا

فَزِعْتُ إِلى حَرْفٍ أَضَرَّ بِنَبْهَا سُرَى اللَّيْلِ وَ اسْتِعْرَاضُهَا البَلَدَ القَفْرَا[30]

لم يكن الفرزدق ليصدق دعوة زياد له ، و هو الخبير به و بسياسته المتشددة في عقاب المخطئين . و يتعجب الشاعر من هذه الدعوة للعطاء الخاصة به ، و عند زياد كثير من الناس ظاهرٌ عليهم الفقر ، يقعدون عند بابه ينتظرون عطاءه و فضله . و هذا تعجب منطقي كيف لزياد أن يثيب المخطئ و يترك المحسن ، فجاء التعليل من الفرزدق أن في الأمر حيلة للإيقاع به فرفض عرض زياد له ، و أتم القصيدة بذكر فراره و مدح سعيد بن العاص.

و على أية حال كان لابد للخوف أن يزول إما بصلح الخصمين ، أو موت أحدهما ، وهذا ما جرى.

فبعد طرد مروان للفرزدق من المدينة ، قابل الفرزدق ركبًا قادمين من البصرة ، و سألهم عن أحوالها فأخبروه بموت زياد فنزل عن راحلته و سجد[31] شكرًا لله ، ورجع إلى البصرة بعد أن كان لا مأوى له .

و في هذه الأثناء ، و بعد موت زياد أصر الفرزدق على الانتقام منه بعد موته ، لأنه لا يجرؤ على فعلها في حياته فقال أبياتا يرد فيها على رثاء مسكين الدَّارمي لزياد إذ قال :

أَمِسْكِينُ أَبْكَى اللهُ عَيْنَكَ إِنَّمَا جَرَى فِي ضَلاَلٍ دَمْعُهَا إِذْ تَحَدَّرَا

أَتَبْكِي امرأً مِنْ أَهْلِ مَيْسَانَ كَافِراً كَكِسْرَى عَلى عِدَّانِهِ أَوْ كَقَيْصَرَا

أَقُولُ لَهُ لَمّا أَتَانِي نَعِيُّهُ بِهِ لاَ بِظَبْيٍ بِالصَّرِيْمَةِ أَعْفَرَا[32]

و مما قاله ردا على مسكين ، و في هجاء زياد قوله :

أَلاَ إِنَّ مِسْكِيْناً بَكَى وَ هْوَ ضَارِعٌ لِفَقْدِ أْمِرِئٍ مَا كَانَ يَشْبَعُ طَائِرُهْ

إِذَا ذُكِرَتْ أَيْدِي الكِرَامِ إِلَى النَّدَى وَ آثَارُهَا ذَمَّتْ يَدَيْهِ مَعَاشِرُهْ

وَلاَ تَبْكِ مِنْ فَقْدِ أْمِرِئٍ لَسْتَ ذَاكِراً لَهُ لامَةً إِلاَّ اسْتَمَرَّتْ مَرَائِرُهْ[33]

يُخَطِّئ الفرزدق في هذه الأبيات و التي سبقتها مسكينًا ، لرثائه زيادًا ، الذي سلبه الشاعر كل شيء حتى الإسلام ، إذ وصفه بالكفر و سلب منه ، العروبة إذ نسبه لميسان ، فهو مثل ملوك العجم كقيصر ، أو ككسرى في كفرهم ، كما أنه يستحل الدماء ، و لا يشبع من إراقتها و يقيم على ذلك ، و ليس له في الكرم باع و لا يد ، يذمه من يعرفه حق المعرفة .

إننا أمام حمم دفينة في نفس الفرزدق، لم يخرجها إلا موت زياد التي أحس الفرزدق من جرائها بأنه حر طليق يهيم في الأرجاء ، لا يتقي أحدًا بالاستجارة ، و لا يرهب من أحد ، إنما هو طير لا يمنعه من التحليق في الفضاء شيء . و في هذا المعنى

(1) الفرزدق، شرح ديوانه، 320/1 .
(31) الأصفهاني، الأغاني، 340/21 .
(32) الفرزدق، شرح ديوانه، 341/1 .
(33) الفرزدق، شرح ديوانه، 541/1 .

يقول الفرزدق مخاطبًا زيادًا بعد موته :

أَبْلِغْ زِيَاداً إِذَا لاَقَيْتَ جِيْفَتَهُ أَنَّ الحَمَامَةَ قَدْ طَارَتْ مِنَ الحَرَمِ

طَارَتْ فَمَا زَالَ يَنْمِيْهَا قَوادِمُهَا حَتَّى استَغَاثَتْ إِلى الصَّحْرَاءِ وَ الأَجَمِ[34]

لو لم يكن زياد يعيش مع الفرزدق لما رأيناه يخاطبه مستشعرًا النصر عليه بكسر الخوف الذي تمثله الحمامة الآمنة التي تطير إلى الصحاري و الآجام لا يرهبها مفترس ، و لا يذعرها صياد . حمامة تطير مستأنسة كفرزدق حر طليق يعود إلى موطنه بعد غربة دامت ثلاثة أعوام .

و بعد استقرار الفرزدق ، و استجماع قواه عبر الزمن نراه يقول : في ولاية خالد القسري:

وَلَوْ كُنْتُ أَخْشَى خَالِداً أَنْ يَرُو عَني لَطِرْتُ بِوَافٍ رِيْشُهُ غَيْرُ جَادِفِ

كَمَا طِرْتُ مِنْ مِصْرَيْ زِيَادٍ ، وَ إِنَّهُ لَتَصْرِفُ لِي أَنْيَابُهُ بِالمَتَالِفِ

وَ مَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أُرَى فِي مُخَيَّسٍ قَصيرَ الخُطَى أَمْشِي كَمَشْيِ الرَّوَاسِفِ

أَبِيْتُ تَطُوفُ الزُّطُّ حَوْلِي بِجُلْجُلٍ عَليَّ رَقِيْبٌ مِنْهُمُ كَالمُحَالِفِ[35]

هذا تأكيد من الشاعر على أن الولاة يختلفون ، فزياد ليس كخالد القسري الذي لم يخشه الفرزدق كخشيته زيادًا . كما أن في الأبيات هدوء تام يظهره شخص قبيل سنوات لم يكن يستطيع النوم من الخوف ، و كثيرًا ما تصور له نفسيته الخائفة الخوف على أنه أمراض كالحمى و السم ، و آلام المعدة .

و لا غرو أن يكون الخوف مختلفًا باختلاف الوالي ، و ببصر الشاعر بالسياسة أو السياسي الذي يتعامل معه . فشتان بين خالد القسري الذي هجاه الفرزدق و هجا أمه النصرانية ، و حط من قدر أعماله في الميدان الاجتماعي[36] ، و بين زياد الذي لم يستطع الفرزدق هجاءه إلا بعد موته ، من شدة الخوف . هذا الخوف الذي يؤكده الشاعر بعد موت زياد بأن يضرب به المثل في كل ما خافه[37] .

هكذا كانت نفسية الفرزدق في ظل حكم زياد للعراق خائفة قلقة ، لا تستحي من التصريح بخوفها ، و هي التي طالما أمدته بعواطف شعره ، و كانت صلتها بإنتاجه صلة البذرة بالثمرة ، إذ صدرت عنها في أصل التكوين ، و أخذت تنمو ، لتعطي في النهاية صورًا متعددة منها[38] . فنفسية السيد أمدته بالفخر الذي عج به ديوانه ، و نفسية المتعالي أمدته بالهجاء الذي مات عليه ، و نفسية الجبان أمدته بكثر من شعر الخوف .

لم يكن هذا اللون من الشعر عند الفرزدق ليرتقي إلى مصاف الجيد من مفاخره و أهاجيه ، بل جاء في ذيل الفنون التي اهتم بها ، إذ لا نرى فيه الجودة الحقيقية كما نراها في سائر شعره .

(1) نفسه، 424/2 .
([35]) نفسه، 94/2 .
([36]) انظر الفرزدق، شرح ديوانه، 273/1 ، 492/1 – 493 ،172/2 .
([37]) البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، 236/5، والأصفهاني، الأغاني، 404/21 .
([38]) البيومي،محمد رجب، رأي جديد في الفرزدق، مجلة كلية اللغة العربية ، جامعة الإمام ، العدد الرابع ، 1974م ، ص74 .

نرى ذلك جليا في الشكل الذي لا يتجاوز النتف و المقطوعات ، و الأبيات القليلة العارضة في بعض قصائده ، مما يوحي بعدم تفرغ الشاعر للنظم في هذا المعنى تحديدا ، لانشغاله بالتخفي ، و مدح مجيريه ، و حياته اللاهية . و في كل هذا محاولة للنسيان و الانقطاع عن الشعور بالحياة التي يخيم عليها الخوف من زياد .

و في المضمون نجد هيمنة الأسلوب الخيري على غيره ، مما يوحي بعميق الأثر الذي خلفته هذه التجربة في نفس الشاعر حتى حولها أخبارًا يبثها أقرانه ، كنوع من التنفيس عن عاطفة آذته فباح بها و جاهر على الملأ معلنًا خوفه من زياد .

ب- الحجاج و الخوف المضمر:

عاد الفرزدق بعد موت زياد إلى العراق ، و عادت معه حياته السابقة يهجو من شاء ، و يمدح من شاء ، و يفخر على من شاء ، و عاش في كنف عدد غير قليل من الولاة الذين تسلموا السلطة بعد موت زياد ، كعبيد الله بن زياد ، و بشر بن مروان ، و مصعب بن الزبير ، و غيرهم .

كان الفرزدق مقيما في العراق من سنة 53-54 هجرية ، و هو في العقد الثالث من العمر ، لا يرحل عنها إلا للتكسب و المدح ، حتى سنة 75 هجرية ، و هي السنة التي استلم فيها الحجاج ولاية العراق لعبد الملك بن مروان[39] ، الذي أصبح أمير المؤمنين بعد أبيه مروان بن الحكم ، و بعد أحداث عنيفة هزت المجتمع الإسلامي و العربي .

و مع بداية أمر الحجاج في العراق كان الفرزدق في العقد الخامس من العمر ، عركته الدنيا، فاكتسب الحكمة و الحنكة ، و حسن التصرف ، وأيقن أن هذا الثقفي مثل زياد إن لم يكن أشد منه في البطش و العنف فرسم لنفسه – و هو المجرب البصير – خططًا تختلف عن الخطط التي استعملها مع زياد .

علم الفرزدق وهو ابن الخمسين سنة أن منعطفا تاريخيا يوشك أن يغير حياته ، و هو الشيخ الكبير الذي لا يستطيع الفرار و طلب الجوار كما صنع و هو في الثلاثين من عمره مع زياد ، و دونما تردد صار من خاصة الوالي ، مادحًا له ، و معددًا مناقبه ، و مسجلاً كل صنع يصنعه . فتبدل حاله ، و تغير سير شعره ، لكنه لم ينبذ الخوف ، بل أضمره طوال ولاية الحجاج .

و للمتأمل في التاريخ و شعر الفرزدق يعلم أن اتصال الفرزدق بالحجاج بدأ منذ وقت مبكر من حكمه للعراق ، و يظهر ذلك من كثرة الشعر الذي قاله فيه ، إذ أصبح الفرزدق بوقًا للحجاج ، و وسيلة من وسائل إعلامه، فلا يسافر الحجاج إلا بقصيدة من الفرزدق[40] ، و لا يخرج شخصًا من السجن إلا بقصيدة منه[41] ، و لا يلم به حدث إلا شاركه الشاعر ما ألم به[42] ، مما يشي بالصلة الوطيدة بينهما .

و الحقيقة أن الحجاج كان مقصد الشعراء ، حيث كان كريمًا قياضًا ، يصلهم و يحسن إليهم . و من مداحه جرير بن عطية و ليلى الأخيلية و الأخطل ، و كلهم نال من فضله و عظيم عطائه . حتى الفرزدق أصاب منه نعمة عظيمة ، فقد ساق الحجاج له مهر زوجة من زوجاته مائة ناقة[43] .

و لعل اتصال الفرزدق بالحجاج كان سببه المنافسة بينه و بين جرير خصمه اللدود على النوال و الجائزة ، وكان جرير قد اتصل باللحجاج و دبج فيه مدائح رائعة غبطة عبد الملك بن مروان عليها قبل أن يسير إليه جرير و ينشده[44] .

([39]) الطبري، تاريخه، 202/6 ومابعدها .

([40]) انظرقصيدته في مدح الحجاج وقد سارمن الشام إلى واسط في سبعة أيام، شرح ديوانه، 193/1 .

([41]) انظرقصيدته في إخراج الحجاج لواليه يزيد بن عمروالأسدي من السجن، شرح ديوانه، 284/1 .

([42]) انظرقصيدته في رثاء محمد بن يوسف ومحمد بن الحجاج بن يوسف، شرح ديوانه، 35/2 .

([43]) الأصفهاني،الأغاني، 317/21 .

([44]) الخطفى،جرير بن عطية، ديوانه، بشرح محمد بن حبيب، تحقيق، د. نعمان محمد أمين طه ، طبعة دارالمعارف القاهرة ، ط4 ، 82/1 ومابعدها .

و إن كنت أظن أن السبب الأهم دراية الفرزدق بسياسة الحجاج الذي سأل عن سيرة زياد وقت توليه العراق ، فاجتنب محاسنها ، و أخذ بمساوئها[45] . و لعلمه أن الحجاج لا يرضى بالتطاول على سلطانه ، و هو الذي قتل صبرًا مائة و عشرين ألف نفس ، و سجن ثلاثة و ثلاثين ألفًا لم يجب على أحدهم قطع و لا صلب[46] .

لقد كان الحجاج مغرمًا بثناء الناس عليه[47] ،و من هذا الباب ولج الفرزدق إلى عالم ابن يوسف فصاغ فيه مدائح رائعة . يهمنا منها تلك الأوصاف التي حاول الشاعر أن يلبسها الحجاج فهي لب المدائح ، و لب بحثنا أيضًا.

عودنا الفرزدق في مدحه لوالي العراق بأن يستظهر جانب القدرة عنده على البطش و القتل و سفك الدماء ، و لم تفارق هذه الصورة للحجاج مدائحه التي نظمها الشاعر عن قناعة تامة و اطمئنان راسخ بصدق هذا .

من أبرز المدائح في تصوير ذلك قصيدته بعد وقعة دير الجماجم التي حارب بها الحجاج جيوش عبد الرحمن بن الأشعث الذي ثار على عبد الملك بن مروان[48] . يقول الفرزدق :

كَأَنَّ عَلَى دَيْرِ الجَمَاجِمِ مِنْهُمُ حَصَائِدَ أَوْ أَعْجَازَ نَخْلٍ تَقَعَّرَا

تَعَرَّفُ هَمْدَانِيَّةٌ سَبَنِّيَةٌ وَ تُكْرِهُ عَيْنَيْهَا عَلَى مَا تَنَكَّرَا

رَأَتْهُ مَعَ القَتْلَى وَ غَيَّرَ بَعْلَهَا عَلَيْهَا تُرَابٌ فِي دَمٍ قَدْ تَعَفَرَا

أَرَاحُوهُ مِنْ رَأسٍ وَ عَيْنَيْنِ كَانَتَا بَعِيْدَيْنِ طَرْفاً بِالخِيَانَةِ أَخْزَرَا

مِنَ النَّاكِثِيْنَ العَهْدَ مِنْ سَبَنِّيَةٍ وَ إِمَا زُبَيْرِيٍّ مِنَ الذِّئْبِ أَغْدَرَا

وَ بِالخَنْدَقِ البَصْرِيّ قَتْلَى تَخَالُهَا عَلَى جَانِبِ الفَيْضِ الهَدْيَّ المُنَحَّرَا[49]

يا لهذه الصورة المفزعة ، التي يقف فيها الحجاج بين أكوام من الجثث و الأشلاء ، و بحار من الدماء التي أرقها ، لولهة بسفك الدماء[50] . و لم يجد الفرزدق مفتتحا لهذا الجزء من القصيدة ، أفضل من تضمين الآية الكريمة في قوله تعالى : (تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ)[51] و هي الريح التي أرسلها سبحانه و تعالى عذابًا لقوم هود عليه السلام ، و كأن الفرزدق يرى أنَّ الحجاج عذاب على الناكثين من أتباع ابن الأشعث ، إن لم يكن عذابًا للناس جميعًا .

و قال قبل هذه الأبيات ممهدًا لما سيأتي بعد من قتل وسفك:

وَقَائِعُ لِلحَجَّاجِ تَرْمِي نِسَاؤهَا بِأَوْلاَدِ مَا قَدْ كَانَ مِنْهُنَّ مُضْمَرَا[52]

(45) البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، 354/13 .
(46) الصفدي، صلاح الدين،الوافي بالوفيات، تحقيق، أحمدالأرناؤوط، تزكي مصطفى، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط1 ، 2000م ، 237/11 .
(47) البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، 368/13 .
(48) المسعودي، مروج الذهب، 127/3.
(49) الفرزدق، شرح ديوانه، 404/1 – 405 .
(50) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 206/1 .
(51) سورة القمر، الآية، 20 .
(52) الفرزدق، شرح ديوان، 401/1 .

هكذا تكون وقائع الحجاج عذابا على المقاتلين و غيرهم ، فالنساء تسقط أحمالهن لمجرد السماع عن وقائع الحجاج ، و هن لم يشهدنها .

و من صدق الاعتقاد لدى الفرزدق بوحشية الحجاج في هذه القصيدة ، أنه لم يأتِ على ذكر العفو ، الذي يحسن ذكره في مقام النصر ، و قد عفا الحجاج – كما يذكر أهل التاريخ – عن بعض الأسرى في يوم دير الجماجم ، لعل من أشهرهم الشعبي الراوية المعروف[53] ، لكن سيطرة الهلع عليه حدت به إلى التركيز على جانب دون آخر ، و هو المراد من إبراز عنف الحجاج دون عفوه في مدائح الفرزدق .

و لعل هذا المدح المصطبغ بالدم يجد قبولا في نفس الحجاج ، و عن هذا الأمر تحديدًا يقول الدكتور شاكر الفحام : (و كثرت مدائح الفرزدق للحجاج ، و قد أرضاه بصوره القوية العنيفة التي كان الحجاج يؤثر أن يصور بها ، و قدر للفرزدق أن يصور الحجاج بأسلوبه القوي و صوره العنيفة التي تتراءى منها نفس الحجاج ترائيها من معانيه، إنها المزاوجة الفنية بين المعنى و صورته)[54]

لا شك في تطابق المعاني مع الصورة الحقيقية للحجاج ، و قد ندركها من قراءة التاريخ ، لكن الفارق في شعر الفرزدق ما يقبع في أعماق نفس الفرزدق من خوف و حذر شديدين ، لا يطغى أحدهما على الآخر ، بل يسيران بخطًا ثابتة نحو الأمان و النجاة و من ذلك أيضا قوله :

لَقَدْ ضَرَبَ الحَجَّاجُ ضَرْبَةَ حَازِمٍ ... كَبَا جُنْدُ إِبْلِيسٍ لَهَا وَ تَضَعْضَعُوا

أَضَاءَ لَهَا مَا بَيْنَ شَرْقٍ وَ مَغرِبٍ ... بِثُورٍ مُضِيءٍ وَ الأَسِنَّةُ شُرَّعُ

وَ خَرَّتْ شَيَاطِيْنُ البِلادَ كَأَنَّهَا ... مَخَافَةُ أُخْرَى فِي الأَزِمَّةِ خُضَّعُ

فَلَمْ يَدَعِ الحَجَّاجُ مِنْ ذِي عَدَاوةٍ ... مِنَ النَّاسِ إِلاَّ يَسْتَكِيْنُ وَ يَضْرَعُ

إِذَا حَارَبَ الحَجَّاجُ أَيَّ مُنَافِقٍ ... عَلاَهُ بِسَيْفٍ كُلَّمَا هُزَّ يَقْطَعُ[55]

هكذا تظهر مدائح الحجاج في شعر الفرزدق صاخبة ، و مليئة بالضرب و الطعن و القطع ، حتى ليشعر القارئ أن ناظمها شارك فيها ليرصد فعل الحجاج بالأعداء ، و تنكيله بهم . و قد ذكر الطبري في تاريخه شيئًا من ذلك ، إذ صرح بأن الفرزدق كان ينشد الحجاج الشعر و هو يقتص من أسرى وقعة مسكن أتباع ابن الأشعث[56] . و لا نرى في مدائح الفرزدق للحجاج في هذا الباب سوى بث الرعب في نفوس أعدائه و خصومه من الثائرين و غيرهم من أهل العراق الذين يبيتون الكره و السوء له . فيما قل تغني الفرزدق بمناقبه الأخلاقية و فضائله الدينية ، و تفوقت صورة الحجاج البَطَّاش، على الحجاج التقي ذي السجايا و الخصال الحميدة. و استمع إليه في إحدى طواله في مدح الحجاج يخوف الناس منه ، و كأنه الموت القادم إليهم ، فلا يبقى من به داء إلا شفاه بطرائقه التي علمها كل قاص و دان :

وَ كَمْ مِنْ عَشِّي العَيْنَيْنِ أَعْمَى فُؤَادُهُ ... أَقَمْتَ وَ ذِي رَأْسٍ عَنِ الحَقِّ مَائِلِ

(53) الطبري، تاريخه، 374/6 ومابعدها .
(54) الفحام، شاكر، الفرزدق، طبعة دار الفكر ، دمشق ، ط1 ، 1977م، ص166 .
(4) الفرزدق، شرح ديوانه، 70/2 .
(56) الطبري، تاريخه، 380/6 .

بِسَيْفٍ بِهِ للهِ تَضْرِبُ مَنْ عَصَى عَلَى قَصَرِ الأَعْنَاقِ فَوْقَ الكَواهِلِ

شَفَيْتَ مِنَ الدَّاءِ العِرَاقَ فَلَمْ تَدَعْ بِهِ رِيْبَةً بَعْدَ اصْطِفَاقِ الزَّلازِلِ

وَ كَانُوا كَذِي دَاءٍ أَصَابَ شِفَاءَهُ طَبَيْبٌ بِهِ تَحْتَ الشَّرَاسِيْفِ دَاخِلِ

كَوَى الدَّاءَ بِالمِكْوَاةِ حَتَّى جَلاَ بِهَا عَنِ القَلْبِ عَيْنَي كُلِّ جِنّ وَ خَابِلِ[57]

تثبت هذه الأبيات أن الحجاج لم يكن سوى متسلط همه إرهاب البشر . فهو صاحب وعد ، و له صولة من وقي شرها عاش حياته يعاني تبعاتها خوفًا و حذرًا من الوقوع في الزلل و الخطأ الذي لا يغفره ابن يوسف ، بل يحاول علاجه بالسيف أو بالكي ، فنقمه هذا الوالي تتردد بين الموت الناجز و العذاب أو الترهيب المستمر .

و من الغريب أن يفتقد الفرزدق هذا النكال حتى في مراثيه للحجاج إذ يقول في رثائه :

وَ مَا ضُمِّنَتْ أَرْضٌ فَتَحْمِلَ مِثْلَهُ وَ لاَ خُطَّ يُنْعَى فِي بُطُونِ الصَّحَائِفِ

لِحَزْمٍ وَ لاَ تَنْكِيلِ عِفْرِيْتِ فِتْنَةٍ إِذَا اكتَحَلَتْ أَنْيَابُ جَرْبَاءَ شَارِفِ[58]

و لا شك أن التمدح بالتفوق على الأقران ، و إلحاق الهزيمة و التنكيل بهم ضرب من ضروب الشجاعة و الفروسية التي عرفها شعراء الجاهلية ، و جعلوها من خصائص مدحهم لأبطالهم و ساداتهم ، إلا أن الأمر هنا مختلف بعض الشيء ، إذ نجد أنفسنا أمام شاعر ممتلئ بالخوف ، و وال همه سفك الدماء و القتل كما تنطق سيرته بذلك ، فنحن أمام حقيقة التنكيل و لذة إراقة الدماء ، و لسنا أمام شجاعة يكتنفها عفو و حلم و فداء تحول دون الاستمتاع بالقتل و منظر الدم.

و ما تطرق الفرزدق لهذا المعنى و استزاد منه إلا ليصرف عقاب الحجاج و بطشه عنه إلى غيره من الناس ، و ما كان دور الفرزدق في بلاط الحجاج سوى تحسين القبيح من قتل و سفك للدماء في عين طاغية أعنت الناس و خوفهم . و هكذا تصبح استباحة الدماء و تحليلها على لسان الفرزدق شجاعة و بطولة ترضي غرور الحجاج من جهة ، و تؤكد ولاءه لبني مروان من جهة أخرى .

و مما يدل على أن الفرزدق يتخذ تخويف الناس من الحجاج أسلوبًا له قوله بصراحة متناهية لشخص كان يبيع الماء و يأخذ ثمنه :

وَ لَوْ عَلِمَ الحَجَّاجُ عِلْمَكَ لَمْ تَبِعْ يَمِيْنُكَ مَاءً مُسْلِماً بِثَمِينِ

لَحَاوَلْتَ جَدْعاً أَوْ لأُلفِيْتَ مُقْعَداً تَزَحَّـــفُ تَمْشِـــي مِشْيَـــةَ ابِـــنِ وِضِينِ [59]

هذا تخويف صريح بالحجاج ، الذي إن علم ببيع هذا الرجل للماء ، فإنه سوف يجدع أنفه ، أو يشل حركته فيلفى زاحفًا لا يستطيع المشي .

([57]) الفرزدق، شرح ديوانه، 289/2 – 290 .
([58]) نفسه، 85/2 .
([59]) الفرزدق، شرح ديوانه، 613/2 .

و بعد أن استنفذ الفرزدق كل صورة أظهر فيها الحجاج بثياب البطش و التنكيل باسم الشجاعة ، ذهب إلى رسم صورة الخائفين هذه المرة ، ليضع الصورتين أما بعضهما فيكتمل المشهد الاجتماعي لأهل العراق وقت حكم الحجاج .

و من أظهر الدلائل على تمكن الخوف من نفوس العراقيين في شعر الفرزدق قوله :

إِذَا مَا بَدَا الحَجَّاجُ للنَّاسِ أَطْرَقُوا وَ أَسْكَتَ مِنْهُمْ كُلُّ مَنْ كَانَ يَنْطِقُ

فَمَا هُوَ إِلاَّ بَائِلٌ مِنْ مَخَافَةٍ وَ آخَرُ مِنْهُمْ ظَلَّ بِالرِّيْقِ يَشْرَقُ

وَ طَارَتْ قُلوبُ النَّاسِ شَرْقاً وَ مَغْرِباً فَمَا النَّاسُ إِلاَّ مُهْجِسٌ أَوْ مُلَقْلِقُ[60]

هذه حال أهل العراق في ظل حكم الحجاج ، فمجرد ظهوره لهم تضطرب الأفئدة و تطير من الصدور هلعًا ، و يطرق الناس و يسكتون ، و قد يبول الرجل من خوفه على نفسه ، أو يغص بريقه ، لظهور الحجاج فقط ، أي برؤيته ، فهذه الصورة الحقيقية للحجاج و هو يعامل عوام الناس ، فمن باب أولى أن تكون هذه صورته و هو يعامل أعداءه و أعداء المروانيين ، و التي كان يحاول الفرزدق أن يقلبها إلى شجاعة و بطولة .

و لا يزال الفرزدق يكتم خوفه من الحجاج ، و يحاول أن يجريه في شعره كشعور جماعي لمن هم تحت حكمه كما في الأبيات السابقة و يزيد الفرزدق على ذلك بأن يصرح بإضماره الخوف ، بعد أن جرى لا على لسانه ، بل على لسان زوجته النوار يقول :

أَلَمْ تَرَ مَا قَالَتْ نَوَارُ وَ دُوْنَهَا مِنَ الهَمِّ لِي مُسْتَضْمَرٌ أَنَا كَاتِمُهْ

تَقُولُ وَ عَيْنَاهَا تَفِيْضَانِ : هَلْ تَرَى مَكَانَكَ مِمَّنْ لاَ أَرَاكَ تُخَاصِمُهْ

تَنَحَّ عَنِ الحَجَّاجِ إِنَّ زِحَامَهُ شَدِيْدٌ إِذَا أَغْضَى عَلَى مَنْ يُزَاحِمُهْ

وَ مَنْ يَأْمَنُ الحَجَّاجَ ، وَ الجِنُّ تَتَّقِي عُقُوبَتَهُ إِلاَّ ضَعِيْفٌ عَزَائِمُهْ[61]

فالنوار تطلب من زوجها عدم مزاحمة الحجاج و إغضابه ، لأن خصامه خطير ، و قد يحملها عليه الحجاج ، و يجد عليه و إن أغضى عنه حينًا فيأتي رد الشاعر الذي أضمر الهم و كتمه بأن الخوف واجب من الحجاج فالجن تتقي عقوبته ، وهو إنسان ضعيف العزيمة .

و يتقدم الفرزدق في خوفه درجة أشد من السابقة ، فنراه يصرح بخوف الخجل من الحجاج إذ يقول :

وَ مَا بَيَّنَ الأَيَامُ إِلاَّ ابنُ لَيْلَةٍ رُكُوباً لَهَا وَ الدَّهْرُ جَمُّ التَّلاتِلِ

لَهُ لَيْلَةُ البَيْضَاءِ إِذْ أَنَا خائِفٌ لِذَنْبِي وَ إِذْ قَلْبِي كَثِيْرُ البَلابِلِ

(60) نفسه، 161/2 .

(61) الفرزدق، شرح ديوانه، 392/2 .

فَمَا حَيَّةٌ يُرْقَى أَشَدَّ شَكِيْمَةً وَ لاَ مِثْلَ هَذَا مِنْ شَفِيْعٍ مُنَاضِلِ

يَجِدُّ إِذَا الحَجَّاجُ لانَ وَ إِنْ يَخَفْ لَهُ غَضَباً يَضْرِبْ بِرِفْقِ المُحَاوِلِ[62]

نجد حيرة الشاعر في هذه الأبيات بادية ، فهو خائف من أمر ما ، لكن الخوف لم يستبد به ، و يضطره إلى الفرار ، أو الشعور النفسي المرير كما كان مع زياد ، بل على العكس نجد خوفه من الحجاج و الشعور فردي يحتمل كثيرا من العفو ، و مزيدًا من المحاولة ، مما يوحي بعدم بلوغه الغاية القصوى فيه ، فهذه النزعة مجرد هواجس توسوس بها نفسية الجبان المذنب للشاعر أن يخاف من أمر لا عقاب عليه .

و إن كنا نبحث في شعر الفرزدق عن أبيات صرح بها في الخوف من الحجاج ، فإننا لم نجدها إلا مرة واحدة في قصيدته التي مدح بها الوليد بن عبد الملك :

وَ قَدْ خِفْتُ حَتَّى لَوْ أَرَى المَوْتَ مُقْبِلاً لِيَأْخُذَنِي وَ المَوْتُ يُكْرَهُ زَائِرُهْ

لَكَانَ مِنَ الحَجَّاجِ أَهْوَنَ رَوْعَةً إِذَا هُوَ أَغْضَى وَ هْوَ سَامٍ نَوَاظِرُهْ

أَدِبُّ وَ دُونِي سَيْرُ شَهْرٍ كَأَنَّنِي أَرَاكَ وَ لَيْلٌ مُسْتَجِيرٌ عَسَاكِرُهْ

ذَكَرْتُ الذِي بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بَعْدَمَا رَمَى بِيَ مِنْ نَجْدَيْ تِهَامَةَ غَائِرُهْ

فَأَيْقَنْتُ أَنّي إِنْ نَأَيْتُكَ لَمْ يَرِد بِيَ النَّأْيُ إِلاَّ كُلَّ شَيءٍ أُحَاذِرُهْ

وَ أَنْ لَوْ رَكِبْتُ الرِّيْحَ ثُمَ طَلَبْتَنِي لَكُنْتُ كَشَيءٍ أَدْرَكَتْهُ مَقَادِرُهْ

فَلَمْ أَرَ شَيْئاً غَيْرَ إِقْبَالِ نَاقَتِي إِلَيْكَ وَ أَمْرِي قَدْ تَعَيَّتْ مَصَادِرُهْ

وَ مَا خَافَ شَيءٌ لَمْ يَمُتْ مِنْ مَخَافَةٍ كَمَا قَدْ أَسَرَّتْ فِي فُؤَادِي ضَمَائِرُهْ

أَخَافُ مِنَ الحَجَّاجِ سَوْرَةَ مُخْدِرٍ ضَوَارِبَ بِالأَعْنَاقِ مِنْهُ خَوَادِرُهْ[63]

ترمي هذه الأبيات فضلا عن كونها في تحقق الخوف لدى الشاعر من الحجاج ، إلى دعاية سياسية له ، بوصفه والي العراق و ما حولها من أقاليم ، و الضابط لولايته ، و المحافظ على شؤنها ، و الموطد لدعائمها بفضل شدته و عنفه ، و كل هذا يثبت ولاية الحجاج في خلافة الوليد .

(62) نفسه، 293/2 .
(63) الفرزدق، شرح ديوانه، 417/1 – 418 .

أما الخوف و هو الوسيلة التي اتخذها الفرزدق للدعاية للحجاج ، فقد تمثلت في هذه الأبيات بصدقها و صراحتها على حد سواء ، فحين نرى الموت أهون روعة من خوف الحجاج في نفس الفرزدق ، نلتمس صدق الشعور و صراحته ، و زاد أن جعل له أسدًا يعيش بين جوانحه تفضى عضبته إلى الموت .

و في الأبيات دلالة على مفارقة الفرزدق للحجاج ، و إن لم يكن في أخباره ما يوحي بفراره منه[64] ، لكن الأبيات تؤكد بعده عنه واستقراره في غور تهامة ، فيأتي صدق الشعور بالخوف على بعد المسافة التي تقدر بمسيرة شهر ، و التي إن ركب لها الفرزدق الريح ، لأدركه الحجاج و كأنه قدره المحتوم ، فلم يكن بد للشاعر من الخضوع و قد ضاقت عليه السبل ، فيمم نحو الحجاج و أقبل بناقته ، و هو يُعَشِّمُ نفسه بالصفح .

من هذه الأبيات و سابقتها نستشف وجود فسحة للصفح و العفو بين الحجاج و الفرزدق ، و مع وجود هذه الفسحة نتأكد أن مخاوف الفرزدق من عقاب الحجاج لا تكون صحيحة في أحيان كثيرة ، إنما هي توهمات ، كبتها الشاعر من نفسه التي بالغت في كتم خوفها من الحجاج ، و لم تفرغ هذه الشحنة كما فرغتها مع زياد حتى قلل من أمر زياد و خوفه منه.

و قد توهم البلاذري حين ذكر أن الحجاج قد سجن الفرزدق[65] ، و نقل ذلك عن ابن سلام الجمحي ، و لم يكن ذلك صحيحًا ، و إنما أورد ابن سلام خبرًا مفاده : ((حدثني شعيب بن صخر بن محمد بن زياد وكان في ديماس الحجاج زمانًا حتى أطلقه سليمان حين قام قال: انتهيت إلى الفرزدق و هو ينشد بمكة بالردم مديح سليمان بن عبد الملك :

وَ كَمْ أَطْلَقَتْ كَفَّاكَ مِنْ قَيْدِ بَائِسٍ وَ مِنْ عُقْدَةٍ مَا كَانَ يُرْجَى انْحِلاَلُهَا

كَثِيْراً مِنَ الأَيْدِي الَّتِي قَدْ تَكَنَعَتْ فَكَكْتَ وَ أَعْنَاقاً عَلَيْهَا غِلاَلُهَا

فقلت أنا و الله أحدهم فأخذ بيدي و قال: أيها الناس و الله ما كذبت))[66]. فمن هذا الخبر توهم البلاذري أن يكون الفرزدق هو من سجن ، لكن الحقيقة خلاف ذلك كما يتضح من الخبر .

و من الخبر أيضًا نتشف انقلاب الشاعر على واليه الذي طالما امتدحه ، و كان ذلك بعد موته ، إذ توفي الحجاج في شوال سنة خمس و تسعين للهجرة ، و بويع سليمان بن عبد الملك بالخلافة سنة 96 هجرية ، و لم يكن بينهما سوى عدة أشهر[67]

و لم يكن أمر انقلاب الشاعر على ممدوحه بالمستغرب ، بل شهدنا مثل هذا الصنيع مع زياد ، حيث لم يستطع هجاءه و هو حي فهجاه بعد مماته .

و لعل الفرق البسيط بين هذا وذاك ، أن الفرزدق تمهل في هجاء الحجاج ، و لم يستعجل ، لأنه كان يظن أن ابنه عبد الملك سيلي مكانه على العراق[68] ، فكرس نفسه لرثاء الحجاج ، حتى بطل ظنه ، و ارتد على ممدوحه بالهجاء .

و بعد رثائه و هجائه تنبه معاصروه لهذا التحول المفاجئ ، و عندما سُئل عنه قال : ((إنا نكون مع القوم ما كان الله معهم ، فإذا تركهم تركناهم)).[69] و لا نرى مبررًا لهذا التحول سوى زوال الخوف ، و انقطاع المثوبة ، و قد كان بعض الدارسين يرى أن هذا التقلب ينعكس فقط في مواقفه السياسية التي يتبع فيها مصلحته الشخصية [70] ، و هذه حقيقة ، إلا أن مصالحه الشخصية مع الحجاج و زياد اقتضت ألا ينقلب عليهم إلا بعد مماتهم ، مما يؤكد خوفه الشديد منهما ، و لا نبالغ إذا قلنا أنه لم يخف من رجل في عصره كما خافهما ، وهو الذي هجا هشام بن عبد الملك ثم مدحه ، و هجا خالد

(64) الأصفهاني، الأغاني، 287/21 ومابعدها .
(65) البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، 99/12 .
(66) الجمحي، محمد بن سلام، طبقات الشعراء، نشر، جوزف هل، طبعة دارالكتب العلمية، بيروت، 2001م ، ص115 .
(67) الطبري، تاريخه، 492/6 ومابعدها .
(68) البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، 13/ 394 .
(69) نفسه، 12 /71 .
(70) شرف الدين، خليل، الفرزدق بين الله وإبليس، منشورات مكتبة الهلال ، بيروت ، 1987م ،ص72 .

القسري ثم امتدحه ، و هجا ابن هبيرة ثم امتدحه ، و هم أحياء و لم ينتظر موتهم ، حتى قيل لابن هبيرة من سيد العراق ؟ قال الفرزدق هجاني أميرًا ، و مد حني سوقةً .[71]

و إذا رجعنا إلى أهاجيه في الحجاج ، فإنها تقوم على نقيض مدائحه له ، و قد رأينا الفرزدق يسلك الهجاء الديني مع زياد ، لكنه مع الحجاج ينقل صورة مغايرة تمامًا للصورة التي رسمها له في مدائحه ، فهو طاغية باغية ، لقي جزاء بغيه [72] بالموت حتف أنفه بمرض أعيى الأطباء دواءه .

من هنا نتأكد أن الفرزدق لم يكن صادقًا في مدحه للحجاج ، و أن مدحه نابع من خوف مكتوم ، و من تهوين للقتل و التعذيب في عيني الممدوح الذي كان يرى بهما شجاعة أراده الشاعر أن يراهما . و استمع إليه يمدح سليمان بن عبد الملك فيقول معرضًا بالحجاج :

لَئِنْ نَفَّرُ الحَجَّاجِ آل مُعَتَّبٍ ... لَقُوا دَوْلَةً كَانَ العَدُوُّ يُدالُهَا

لقَدْ أَصْبَحَ الأَحْيَاءُ مِنْهُمْ أَذِلَّةً ... وَ فِي النَّارِ مَثْوَاهُمْ كُلُوحاً سِبَالُهَا

وَ كَانُوا يَرَوْنَ الدَّائِرَاتِ بِغَيْرِهِمْ ... فَصَارَ عَلَيْهِمْ بالعَذَابِ انْفِتَالُهَا

وَ كَانَ إِذَا قِيْلَ اتَّقِ اللهَ شَمَّرَتْ ... بِهِ عِزَّةٌ لاَ يُسْتَطَاعُ جِدَالُهَا

أَلِكْنِي إِلى مَنْ كَانَ بِالصِّيْنِ إِذْ رَمَتْ ... بِهِ الهِنْدَ أَلْوَاحٌ عَلَيْهَا جِلاَلُهَا

هَلُمَّ إِلى الإِسْلاَمِ وَ العَدْلُ عِنْدَنَا ... فَقَدْ مَاتَ عَنْ أَرْضِ العِرَاقِ خَبَالُهَا[73]

هذه الصورة الحقيقية للحجاج في نفس الفرزدق . منعها أن تظهر في حياته الخوف الشديد منه ، فاستحالت صورته بعد ذلك إلى مذل الأحياء ، و قاتلهم بسبب و دونه ، حتى التذكير بالله لا يجدي ، لأن عزته لا تندحر لجبروته و تكبره . و لا ينسى الفرزدق الذي تغنى بأعمال الحجاج في العراق ، حتى وصفه بالطبيب الذي عالجها من كل ما تشتكي ، أن ينقض أعماله الداخلية ، فإذ بنا نراه يصفه بخبال العراق ، و كأنَّ أدواءها كانت بسببه . و إن كانت هذه الأبيات تصور حقيقة اعتقاد الشاعر ، إلا أنها تقدم مصلحته كذلك ، فمع خليفة جديد يبغض الحجاج و يكرهه ، و يرى أنه من أهل النار[74] ، كان لا بد للفرزدق من تقليل شأنه ، و احتقار صنيعه ، و ما قدمه للدولة الأموية من انتصارات على الثائرين ، و قمع للخارجين . و استمع إليه في مدحه لسليمان بن عبد الملك ينسف بطولات الحجاج ، و حسن تدبيره في الحرب :

وَ مَـا نُصِـــرَ الحَجَّـــــاجُ إلاَّ بِغَيــرِهِ ... عَلَى كُلِّ يَوْمٍ مُسْتَحِرِّ المَلاحِمِ[75]

(71) الأصفهاني، الأغاني، 316/21 .

(72)المصطفى ، محمد نافع حسن،الشعر في ركاب الحجاج بن يوسف الثقفي ، حوليات الآداب و العلوم الاجتماعية ، جامعة الكويت ، العدد 29 ، 2008م ، ص71 .

(73) الفرزدق، شرح ديوانه، 193/2 – 194 .

(74) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، عني به، د . محمد النعسان وعبدالمجيد حلبي، طبعة دارالمعرفة بيروت، ط1 2005م، 169/3 .

(75) الفرزدق، شرح ديوانه، 561/2.

و لا شك أن النصر لا يكون إلا من عند الله ، يؤيد به من يشاء من عباده في يوم اشتد فيه الفزع ، لكن الحرب يعوزها بصير بأمرها مدبر ، على قدر عال من الشجاعة ، و قد كان الحجاج كذلك في مدائح الفرزدق له قبل موته، أما الآن فنصر الله وهبه دولة مؤمنة ، و حُكَّامًا مؤمنين ، أيدهم الله بالنصر على يد والٍ من ولاتهم .

و لم تخلُ مدحة للفرزدق في سليمان إلا و ضمنها تعريضًا بالحجاج يتملقه به ، و يستغل كره سليمان له . يقول الفرزدق في إحدى مدائحه :

وَ إِنَّكَ قَدْ نُصِرْتَ أَعَزَّ نَصْر ... عَلَى الحَجَّاجِ إِذْ بَعَثَ البِغَالاَ

مُفَصِّصَةً نُقَرِّبُ بِالدَّوَاهِي ... وَ نَاكِثَةً تُرِيْدُ لَكَ الزِّيَالاَ

فَقَالَ اللهُ إِنَّكَ أَنْتَ أَعْلَى ... مِنَ المُتَلَمّسينَ لَكَ الخَبَالاَ[76]

هذه الأبيات تؤكد استغلال الشاعر ما بين سليمان بن عبد الملك و الحجاج من خلاف، لينفذ إلى عالم الخليفة و يصبح من خاصته ، و عنى بالنصر هنا تسلمه الخلافة بعد أخيه الوليد ، الذي رغب بها عنه ، و أرادها لأحد أبنائه ، فوجدت هذه الدعوى قبولاً و تأيدًا[77] من الحجاج ، لكرهه خلافة سليمان ، الذي لم يكن على وفاق معه .

و يستمر الفرزدق في تضمين مدائحه ذكر الحجاج ، و لا تزال تشمل الحط من قدره و النيل منه ، و هو في بعضها يذكر موته ، و دخوله القبر خالي الوفاض من ماله هو و أخوه و ابناه . يقول :

إِنّي أَرَى الحَجَّاجَ أَدْرَكَهُ ... مَا أَدْرَكَ الأَزْوَى عَلى الوَعْرِ

وَ أَخَاهُ و ابْنَيْهِ اللَّذَيْنِ هُمَا ... كَانَ يَدَيْهِ وَ خَالِصَ الصَّدْرِ

ذَهَبُوا وَ مَالُهُمُ الَّذِي جَمَعُوا ... تَرَكُوهُ مِثْلَ مُنَضَّدِ الصَّخْرِ

دَخَلُوا قُبُورَهُمُ إِذَا اضْطَجَعُوا ... فِيْهَا بِأَوْعِيَةٍ لَهُمْ صِفْرِ[78]

فآل الحجاج مذنبون مثله ، إذ كانوا يصدرون عن أمره ، مع العلم أن الفرزدق قد رثا أخا الحجاج و ابنه غير مرة ، و أسبغ عليهما من الفضائل الدينية و الخلقية[79] ما أبكى الحجاج حتى نشج[80] ، و في الأبيات اتهام صريح بالسرقة التي يوحي بها البيت الثالث ، و قد وجدنا من ترجم للحجاج و ذكر أنه لم يخلف بعد موته غير ثلاثمائة درهم و مصحفًا و سيفًا و سراجًا و رحلاً[81] ، و هذا من تجني الشاعر ، و موقفه المتحول الذي يخدم مصلحته و يذلل أمامها شعره كي يكسب ما وسعه ذلك .

ويذكر ابن هشام مهذب السيرة في معرض حديثه عن صفة الفيل و ما قيل فيه من شعر أبياتًا للفرزدق يزعم أنه قالها في هجاء الحجاج ، و هي من إحدى مدائح سليمان بن عبد الملك :

([76]) نفسه، 233/2 .
([77]) الطبري، تاريخه، 498/6 – 499 .
([78]) الفرزدق، شرح ديوانه، 442/1 .
([79]) انظر شرح ديوانه، 35/2 ، 273/1 .
([80]) البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، 393/13 .
([81]) الصفدي، الوافي بالوافيات، 241/11 .

فَلَمَّا طَغَى الحَجَّاجُ حِيْنَ طَغَى بِهِ غِنَىً قَالَ إِنِّي مُرْتَقٍ فِي السَّلاَلِمِ

فَكَانَ كَمَا قَالَ ابنُ نُوْحٍ سَأَرْتَقِي إِلى جَبَلٍ مِنْ خَشْيَةِ المَاءِ عَاصِمِ

رَمَى اللهُ فِي جُثْمَانِهِ مِثْلَ مَا رَمَى عَنِ القِبْلَةِ البَيْضَاءِ ذَاتِ المَحَارِمِ

جُنُوداً تَسُوقُ الفِيْلَ حَتَّى أَعَادَهُمْ هَبَاءً وَ كَانُوا مُطْرَخِمِّيَ الطَّرَاخِمِ

نُصِرْتَ كَنَصْرِ البَيْتِ إِذْ سَاَق فِيْلَهُ إِلَيْهِ عَظِيْمُ المُشْرِكِيْنَ الأَعَاجِمِ[82]

و تابعه في ذلك بعض من درس بإمعان شعر الفرزدق[83] ، لكن محقق ديوان الفرزدق الذي اعتمدنا عليه في هذه الدراسة يرى أن هذه الأبيات قيلت في قتيبة بن مسلم الباهلي الذي خلع طاعة سليمان بن عبد الملك سنة 96 هجرية[84]و استبدل مكان الحجاج (الجحاد)، و سياق الأبيات يوحي بذلك ، لأن الفرزدق قال قبلها :

عَجِبْتُ إِلى الجَحَّادِ أَيَّ إِمَارَةٍ أَرَادَ لِأَنْ يَزْدَادَهَا أَوْدَرَاهِمِ[85]

و جحود قتيبة بادٍ في خلع سليمان ، و طمعه بالإمارة و المال ، و الحجاج لم يكن وقتها طامعًا بملك و لا مال ، لأنه ثوى في قبره قبل استلام سليمان الملك ، و على رواية الجحاد بدلاً من الحجاج بعض رواة الأدب المتقدمين[86] .

و لا ينكر ما في الأبيات من جمال أظهره استلهام التاريخ ، و تضمين قصص القرآن فيها ، من مثل قصة فرعون و هامان و عتوهما ، و ابن نبي الله نوح عليه السلام ، وصده عن ذكر الله ، و أبرهة صاحب الفيل ، كما من قصص الجبابرة الذين أهلكهم الله بطغيانهم ، و صدهم عن سبيل الله .

و مهما يكن من أمر الأبيات ، و فيمن قيلت ، و سبب قولها ، فإنها تعكس الشخصية المتقلبة للفرزدق ، و تحاكي طبائعه في الهجاء و مزجه مع قصيدة المدح ليذهب بالحسنيين ، حسنى مدح الخليفة ، و حسنى هجاء أعدائه ، و كان بمقدوره أن يكتفي بالمدح دون غيره .

و بعد ، فإن عقدين كاملين قضاهما الفرزدق تحت حكم الحجاج ، و بالقرب منه ، و سمت شعره في هذه الفترة بغير قليل من الخوف المضمر منه .

و لنا أن نقابل بين شعره في زياد و شعره في الحجاج ، فينكشف لنا الفرق الشاسع بين التصريح بالخوف و إظهاره كحالة شعورية فردية ، و بين إجرائه على لسان الزوجة ، و بلسان جماعي تذوب فيه ذات الشاعر كما هو الحال في قصائد الخوف من الحجاج.

و على المستوى الفني أبدع الفرزدق في قصائده التي نظمها في الحجاج إذ تنوعت موضوعاتها بين مدائحٍ و مراثٍ و أهاجٍ ، و أتاح له قربه منه واستقراره نسبيًا أن يطيل في قصائده ، بشكل لم نلحظه مع زياد الذي وقف به عند حدود النتف و المقطوعات .

([82]) الأنصاري، ابن هشام، السيرة النبوية، طبعة المكتبة القيمة، القاهرة، 33/1 .
([83]) الطبري، تاريخه، 560/6 .
([84]) الفرزدق، شرح ديوانه، 560/2 .
([85]) نفسه، 560/2 .
([86]) ميمون، محمد بن المبارك، منتهى الطلب من أشعارالعرب، تحقيق وشرح، محمد نبيل طريفي ، طبعة دارصادر ، بيروت ، ط1 ، 1999م ، 210/5 .

كما لم تخلُ قصائده من جمال التصوير و هو الذي حرص على تسجيل كل أفعال الحجاج ، و رصد حروبه ، و تنكيله بأعدائه ، و كل ذلك تم للفرزدق بعين الشاهد الحاضر . و قد شهد صاحب الشأن قبل مئات السنين بجودة شعر شاعره ، حيث يقول : ما أشعر الفرزدق في قوله لي :

لاَ يَأْلَفُ البُخْلَ إنَّ النَفْسَ بَاسِلَةٌ وَ الرَّأْيُ مُجْتَمِعٌ وَ الجُوْدُ مُنْتَشِرٌ[87]

الخاتمة :

بمقدور كل قارئ لشعر الفرزدق أن يتبين أصالة تجربة الخوف فيه بوجه عام ، و أن يلمحها بوجه خاص ، بل و مميز مع زياد و الحجاج . ففيها تتسع دائرة شعر الفرزدق ، و تخرج إلى فضاءٍ أرحب من غلبة الفخر و الهجاء ، و تعبر عن ذات الشاعر و نفسه ، بعد تعبيرها عن الممدوحين و المهجويين من تميم و غيرها .

احتكمت تجربة الخوف عند الفرزدق لعاملين مهمين هما :

1- عمر الشاعر في كل تجربة .
2- بصره بالسياسة و أهلها في عصره .

هذه العوامل وجهت ما مر بالشاعر من ظروف ، و أدت إلى أن يعيش ثلاث سنين من ولاية زياد على العراق خائفًا طريدًا معلنًا بصدق شدة خوفه منه و هو ابن الثلاثين عامًا . كما جعلته و هو شيخ قد ناهز الخمسين أن يخضع و يستكين عقدين من الزمن في ولاية الحجاج ، مرر خلالهما أشعاره الخائفة التي أضمرها عن طريق مدح الحجاج بالبطش و الفتك بأعدائه ، و عن طريق تصوير هذا الخوف كشعور جماعي لمجتمع يحكمه الحجاج دون الاعتراف به فرديًا من قبل الشاعر إلا في مناسبات قليلة جدًا .

على هذا النحو كان لابد لشعره أن يتمايز مع نهاية كل تجربة، فتجربة زياد كانت أشدهما ، لذا فر منه ، و أعلن خوفه دونما استحياء ، و بعد موت زياد نال منه الفرزدق بهجاء مقذع كفره به ، و سلبه عروبته و ألصقه بالعجم ، و ذكر شناعة أعماله ، بل هجا من رثاه ولو ببيت واحد ، و كل ذلك يوحي بما ترسب في نفسه من خوف استحال بعد زواله إلى موجة حادة من الهجاء .

أما تجربته مع الحجاج فكانت أخفَّ وطأة من سابقتها ، لهذا لم يبرح الفرزدق مكانه في العراق بل أقام فيها ، و اتصل بالحجاج و مدحه ، و نال جوائزه ، و إن تسرب إلى قلبه خوف أضمره الشاعر حتى مات الحجاج ، فانقلب الشاعر على ممدوحه فنقض كل مدحة قالها فيه ، لكنه لم يقذع في هجائه كما فعل مع زياد ، بل اقتصر على تشويه صورته الشجاعة التي طالما تغنى بها الشاعر ، و على ازدراء أعمال كانت تعجب الفرزدق وقت أن كان الحجاج على قيد الحياة .

قائمة المصادروالمراجع :

1- القرآن الكريم.
2- الإسكندري ، أحمد ، و أبو مصلح ، كمال ، الفرزدق حياته و شعره ، بيروت ، المكتبة الحديثة ، ط21 .
3- الأصفهاني ، علي بن الحسين ، الأغاني ، شرحه وكتب حواشيه : الأستاذ: سمير جابر، والأستاذ :عبدأ. علي مهنا، بيروت ، دار الكتب العربية ، ط4 .
4- البلاذري ، أحمد بن يحيى ، جمل من أنساب الأشراف ، حققه و قدم له : سهيل زكار ، رياض زركلي ، بيروت ، دار الفكر .

(87) البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، 102/12 .

5- البيومي ،محمد رجب ، رأي جديد في الفرزدق ، مجلة كلية اللغة العربية ، جامعة الإمام ، العدد الرابع ، 1974 ، ص70 – ص79 .
6- الجمحي ، محمد بن سلام ، طبقات الشعراء ، نشر : جوزف هل ، بيروت ، دار الكتب العلمية.
7- حقي ، ممدوح ، الفرزدق ، القاهرة ، دار المعارف .
8- الخطفي ، جرير بن عطية ، ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب ، تحقيق : نعمان محمد أمين طه ، القاهرة ، دار المعارف ، ط4 .
9- خلكان ، شمس الدين أحمد بن محمد ، وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ط1 .
10- شرف الدين ، خليل ، الفرزدق بين الله وابليس ، بيروت ، مكتبة الهلال .
11- صعصعة ، همام بن غالب ، شرح ديوان الفرزدق ، تحقيق : إيليا الحاوي ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ط1 .
12- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك ، الوافي بالوفيات ، تحقيق و اعتناء : أحمد الأرناؤوط ، تزكي مصطفى ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ط1 .
13- ضيف ، شوقي ، تاريخ الأدب العربي – العصر الإسلامي ، القاهرة ، دار المعارف ، ط7 .
14- الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الرسل و الملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل ، إبراهيم ، القاهرة ، دار المعارف ، ط2 .
15- الفحام ، شاكر ، الفرزدق ، دمشق ، دار الفكر ، ط1 .
16- مروة ، محمد رضا ، الفرزدق حياته و شعره ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط1 .
17- المسعودي ، علي بن الحسين ، مروج الذهب و معادن الجوهر ، عني به : محمد النعسان ، عبد المجيد حلبي ، بيروت ، دار المعرفة ، ط1 .
18- المصطفى ، محمد نافع حسن ، الشعر في ركاب الحجاج بن يوسف الثقفي ، حوليات الآداب و العلوم الاجتماعية ، جامعة الكويت ، العدد 29 ، 2008م .
19- المعافري ، عبد الملك بن هشام ، السيرة النبوية ، القاهرة ، المكتبة القيمة .
20- ميمون ، محمد بن المبارك ، منتهى الطلب من أشعار العرب ، تحقيق و شرح : محمد نبيل طريفي ، بيروت ، دار صادر ، ط1 .